

# بروز تنظيم «داعش»... الروايات تختلف والإرهاب واحد

إعداد وترجمة: ليلي زيدان عبد الخالق

كُتِبَ الكثير عن أسرار نشوء تنظيم «داعش»، وعن مؤسسيه والضالعين في «هيبته». تقارير تبنت نظرية أن التنظيم صناعة أميركية-غربية، مستندة في ذلك إلى ما أورده وزير الخارجية الأميركية السابقة هيلاري كلينتون في كتابها الصادر مؤخراً. وثمة تقارير أخرى تقول إن التنظيم المتطرف ولد من رحم «البعث العراقي». وتقارير تتحدث عن انشقاق «داعش» عن «القاعدة»... تكثر نظريات الولادة، لكن الإرهاب واحد.

إذا كان همّ معدّي هذه التقارير التوثيق للظاهرة الإرهابية الأخطر في هذه الأيام، وذلك من خلال البحث في تاريخ هذا التنظيم من الولادة إلى النشأة والتطور، فإن ذلك يعد عملاً أكاديمياً بحتاً. أما إن كانت أهداف هذه التقارير إلهاء الرأي العام العالمي في أمور نشأة التنظيم، وتحييد النظر عن أفعال هذا التنظيم على الأرض، فإننا نطرح إزاء ذلك جملة من علامات الاستفهام.

في تقريرنا التالي، المؤلف من حلقتين متتاليتين، نظريتان مختلفتان حول ولادة التنظيم الإرهابي «داعش». الأولى شرحها ثالوث من الإعلاميين في «معهد واشنطن»، وتتبنى مقولة أن «داعش» ولد من رحم «القاعدة». لا بل أن أباً مصعب الزرقاوي. القيادي السابق في «القاعدة».

هو من أسس «داعش» أما التقرير الثاني، فنُشر في صحيفة «دير شبيغل» الألمانية في نيسان الماضي، ويتبنى نظرية مغايرة لكل ما سبقها حول هوية مؤسس «داعش».



وفي حين افترق الزرقاوي إلى رؤية سياسية متطورة، قدم المنظرون الآخرون إطاراً لمشروعه القائم على بناء الدولة. ففي عام 2004، كتب أحد أعضاء تنظيم «القاعدة» كتاب «إدارة التوحش»، وهو عبارة عن خطة لإنشاء دولة دينية. إذ فضل كيف يجب على «الجهاديين استغلال الفراغات الأمنية القائمة أو إنشاء فراغات خاصة بهم من خلال مهاجمة البنية التحتية الحساسة للدولة». فعند انحصار الدولة من أجل توحيد صفوفها وتنظيمها، يمكن للجهاديين ملء هذا الفراغ لتقديم الخدمات الاجتماعية والأمنية. وفي مرحلة ثانية، يمكن لهذه الأماكن التي يحكمها الجهاديون أن تتواصل مع بعضها البعض من أجل إقامة دولة. وفي هذا السياق، كان إعلان أبو بكر البغدادي الخالفة في عام 2014 انعلاء الأول الجدير بالتصديق منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية.

ويتجلى العامل الرئيس لهذه الاستراتيجية في جذب دعم المحليين السنة، وهي قضية ثبت أنها تشكل فرقاً جوهرياً بين تنظيمي «القاعدة» و«الداعش» في العراق. بقيادة الزرقاوي. واعتبرت القيادة المركزية أن الاستحواذ على القلوب والعقول أمر ضروري لدعم برنامجها السياسي، في حين تمثل رأي الزرقاوي في العمل لتحقيق هدف واضح من خلال الدقة والنعف إما لكسب الدعم السني أو لإجبار السنة على الخضوع لأهدافه. وقد نصح تنظيم «القاعدة» بعدم اعتماد هذا النهج المتسارع في بناء الدولة، فتكتيكات الزرقاوي أغضبت العشائر والجماعات المتعمدة السنة، وتم تمكين سخطها وتوجيهه من قبل الوجود العسكري الأمريكي في العراق، ما أدى إلى التراجع عن أول مشروع لـ«داعش» بين عامي 2008 و2009. وبحلول ذلك الوقت، كانت الحركة قد تدهورت لتتحول من كونها عبارة عن تمرد قابل للاستمرار إلى منظمة إرهابية سرية.

لكن بعد هذه النكسة، اعتمدت الجماعات التابعة لتنظيم «القاعدة» علم تنظيم «داعش» ومشروع بناء الدولة في الأماكن التي كانت فيها الدولة العراقية قيد الانهيار أو غائبة. وابتداءً من عام 2012، وفرت القيادة السورية فرصة إضافية للتنظيم. فقد أدركت عذّة شاعر عربية سنية أنها محرومة من حقوقها وعلى استعداد لمساعدة تنظيم «داعش» لأنها رأت أنه البديل الأفضل لنظام الأسد أو للدولة العراقية التي يهين عليها الشيعة على نحو متزايد. وفي البداية، تعاون تنظيم «داعش» مع الفصائل الأخرى في هذه الأماكن، ولكن مع مرور الوقت سعى إلى فرض جدول أعماله والقضاء على المنافسين.

وفي النهاية، ربما سيكون جدول التنظيم ماثلاً لمصير غيره من «الدول الجهادية» التي انهارت جميعها. ومع ذلك، لم تقشل هذه الدول بسبب سوء الحوكمة أو الوحشية المفرطة، إنما لأنها جذبت أعداءً أجانباً أقواء وحازمين. وفي حين أن تنظيم «داعش» قد خلق عدداً من الأعداء في العراق وسورية، إلا أن معظمهم يركز حالياً على أولويات أخرى. وعلى رغم أن جهودها ستعزز بزوغ جميع أراضي المسلمين سنكسيه المزيد من الأعداء، إلا أن الاضطرابات المستمرة في المنطقة وغياب الإرادة لدى أولئك الذين يعارضونه قد تسبب للتنظيم بالانتشار والتوسع. ويعترف تنظيم «داعش» بحدود معينة، بيد أنه يعرف أنه لا يمكنه التقدم نحو مكة ولا القدس في الوقت الحاضر.

وخلاصة القول، إن نهج الولايات المتحدة السابق في العراق خلال «صحة الأنبار»، يشكّل أيضاً العامل الرئيس لهزيمة تنظيم «داعش» في الوقت الحالي. إن دعم العشائر العربية السنية يجب أن يكون نقطة محورية في أي استراتيجية لمواجهة الجماعة. وهو شرط يستثنى بالتأكيد إيران وروسيا من أي تحالف قابل للاستمرار ضد تنظيم «داعش».

## هارون زليين

يُتبع تنظيم «داعش» نمطا في توسيع السلطة وتطويرها وتوطيدها. وعلى رغم أن هذا النهج كان في البداية عبارة عن عملية مؤقتة تتكيف بحسب الظروف، إلا أنها تتم الآن بشكل منهجي، وهذه البيروقراطية تسمح للتنظيم بالعمل باستمرار عبر المحافظات المختلفة وبين الأراضي والمناطق



الزرقاوي

الرئيسة وتلك الواقعة في المحيط الخارجي. وفي حين تتم بعض الخطوات في آن، غالبا ما تكون هذه العملية عبارة عن تقدم خطي متسلسل: العمليات الاستخباراتية، تلبيا للعمليات العسكرية، وأنشطة الدعوة وأنشطة الحسبة (الشرطة الأخلاقية وحماية المستهلك) والحوكمة. وتشمل المرحلة الاستخباراتية تنظيم الخلايا النائمة وتسليح المجموعات المختلفة. وفي الأراضي مثل سيناء وليبيا وسورية، لا يبدأ تنظيم «داعش» عمله من الصفر، بل يدمج الشبكات الجهادية الموجودة في إطاره، ما يسمح للجماعة باكتشاف الضحايا المحلية بسرعة. وبعد ذلك يتبع التنظيم أساليب قتالية غير متماثلة مثل هجمات الكَرّ والفَرّ والسيارات المفخخة. أما الأنشطة «التشهيرية»، والتي تشمل الأطراف المتلقية للدعاية وتوزيع بطاقات هوية إلكترونية، فهي تسمح للجماعة بإبلاغ السكان الخاضعين لسيطرتها، وتوجيه خطابها العام، وتوحيد كادرها. كما وتم إنشاء مكاتب العلاقات العامة لجمع الأطراف المتخاصمة سوياً وإدارة التحكيم، في حين تشمل أنشطة الحسبة حرق المواد المحظورة والرموز الدينية غير السنية. وبعد ذلك يفرض تنظيم «داعش» الضرائب وقوانين أوسع نطاقاً ويقدم الخدمات الاجتماعية. وفي الوقت الحالي، تشكل مصادرة الاملاك أكبر مصدر لإيرادات الجماعة، ولكن هذا أمر لا يمكن الاعتماد عليه على المدى الطويل.

ويقتصر تنظيم «داعش» إلى السيطرة الكاملة في معظم المناطق، ولكنه يعمل على تحقيق مستوى من الحياة الطبيعية في جميع أنحاء مناطقه وأراضيه. فالإعلام السواء موجودة في كل مكان، وقد أعيدت تسمية بعض المناطق، كما تظهر مشاريع الأشغال العامة أن الجماعة تقدم الخدمات للسكان المحليين. إضافة إلى ذلك، أعاد التنظيم تشغيل عدد من الصناعات مثل معالجة المياه والزراعة وإنتاج السلع. وبقيت السلطات في تنظيم «داعش» مقلّعة ضدّ أخطار «الصحوات» المحتملة، وذلك عبر قمع ثلاث «صحوات» حتى الآن في العراق وليبيا، ودير الزور في سورية. إلى جانب ذلك، فهي ترصد بدقة الإنترنت ووسائل الإعلام، وبعد بسط سيطرتها في المنطقة، اعتمدت برامج إعادة تأهيل للقيادة المحليين والمواطنين. أضف إلى ذلك أنها تستخدم الكائنات للقضاء على المعارضة. وفي حين أن بعض الأفراد في الأراضي التي يسيطر عليها تنظيم «داعش» يلتزمون بفضية الجماعة، فإن آخرين يبقون صامتين فقط للبقاء على قيد الحياة. ويمجد رسوخه سيصبح من الصعب استئصال التنظيم، على رغم أن قبضته أقل شدة في سورية مما هي عليه في العراق. فالأراضي الوحيدة التي خسرها تنظيم «داعش» هي تلك التي لم يفرض عليها سيطرته الكاملة قط.

وأخيراً، في حين يركز تنظيم «داعش» على عدو قريب في الوقت الحالي، يمكنه في النهاية استخدام أراضيه كملاذ آمن لشحن عمليته إرهابية أجنبية واسعة النطاق على غرار هجمات 11 أيلول، وذلك بهدف كسب الأتباع وارتداء عباءة تنظيم «القاعدة».

## «دير شبيغل»

متحفظ، مهذب، متعلم، شديد الانتباه، كتوم، غير صادق، غامض، شرير. تلك هي الصفات المختلفة التي استخدمها «النوار» في شمال سورية لوصف انطباعاتهم عن الرجل بعد وصول أشهر من لقائهم به، لكنهم اتفقوا على أمر واحد: عدم معرفة أي منهم هوية الشخص الذي تعامل معه على حقيقتها.

في الواقع، حتى أولئك الذين أطلقوا النار على الرجل الطويل قتلوا المخطط الاستراتيجي للمجموعة التي تسمى نفسها «داعش». وقد كسبوا تلك الفرصة نتيجة خطأ نادر لكنه قاتل

من قبل المخطط الغدّ. وضع «النوار المحليون» الجئة في ثلاثة كانوا قد عزموا على دهنه فيها. إلا أنهم تراجعوا عن ذلك بعدما أدركوا أهمية الرجل.

اسمه الحقيقي كان سمير عبد محمد الخليفاوي وهو عراقي الجنسية. تغطي ملامح وجهه النحيل لحية بيضاء. لكن



بن لادن

لم يكن يعرفه أحد بذلك الاسم. حتى اسمه الحركي الأكثر شهرة «حجي بكر» لم يكن معروفاً على نطاق واسع، إلا أن ذلك بالتحديد كان من ضمن المخطط. كان عقيداً سابقاً في استخبارات الدفاع الجوي لصدام حسين، وكان يعمل على إنشاء «الدولة الإسلامية» في السر. وقد وصفه أعضاء المجموعة السابقين مراراً بأنه أحد قادتها. على رغم ذلك، لم يكن دوره واضحاً تماماً.

عندما مات مصمّم «داعش» ترك خلفه سرّاً أراد أن يبقى كذلك، وهو مخطط «دولته». إنه ملف يضمّ عدداً من الجداول التنظيمية المكتوبة بخط اليد والقوائم التي تبين كيفية إخضاع دولة ما تدريجياً. حصلت «دير شبيغل» بشكل حصري على صفحات الملف الواحدة والثلاثين التي تم لصق بعض منها ببعضه. تبين تلك الصفحات تركيباً معقداً وتوجيهات تم اختيار البعض منها والبعض الآخر تم استحداثه للسيطرة على الفوضى التي حلت في مناطق سيطرة «النوار». ويمكن اعتبار هذه الوثائق مرجعاً لأنجح جيش إرهابي في التاريخ الحديث.

معلومات كثيرة حصلنا عليها حتى الآن في خصوص «داعش»، مستقاة من المقاتلين المنشقين ومجموعات البيانات التي صادرت من إدارة «داعش» الداخلية في بغداد. إلا أن كل لم يقدم تفسيراً لصعود التنظيم الصاروخي إلى الشهرة ذلك أن تكيح الضربات الجوية في أواخر صيف عام 2014 مسيرته الناجحة.

وقد اتاحت وثائق «حجي بكر» الفرصة للمرة الأولى لاستنباط الاستنتاجات عن تنظيم قيادة «داعش». وعن دور المسؤولين في حكوته صدام حسين فيها. والأهم من ذلك كله أنها تبنت كيف تم التخطيط للاستيلاء على شمال سورية ما مهد الطريق أمام المجموعة للوصول إلى العراق. إضافة إلى ذلك، اتضح بعد أشهر من البحث الذي قامت به «دير شبيغل» في سورية أن تعليمات «حجي بكر» قد تم تنفيذها بدقة متناهية حسبما تبينّت الوثائق الجديدة التي حصلت عليها «دير شبيغل» حصرياً.

قيعت تلك الوثائق لفترة طويلة مختّاة في بيت في شمال سورية المضطرب. وكان أول الدلائل على وجودها شهادة شخص كان قد وجدها في بيت «حجي بكر» بعيد موته. وفي نيسان عام 2014، مُرِبت صفحة واحدة منها إلى تركيا حيث تمكنت «دير شبيغل» من نقل رفعتها. لفحصها للمرة الأولى. ولم يتسن لنا الوصول إلى «تل رفعت» لفحص المجموعة الكاملة من الأوراق المكتوبة بخط اليد حتى تشرين الثاني 2014.

وقد قال الرجل الذي كان يحزن مذكرات «حجي بكر» بعدما استخرجها من تحت الصناديق واللحف المكديسة، «إن جُلّ اهتمامنا كان منصّباً على عدم وقوع هذه المخططات في أيدي الخطأ، وعدم معرفتنا بها أبداً». نتخطف على هوية هذا الرجل بناء على رغبته خوفاً من كتائب الموت التابعة لـ«داعش».

تبدأ قصّة هذه الوثائق في وقت لم يُسمع فيه بـ«داعش» بعد. عندما سافر «حجي بكر» العراقي الجنسية إلى سورية في بعثة أولى في أواخر عام 2012 كان يحمل معه خطة تبدو غريبة، الأولى أن يستحوذ «داعش» على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي، ثم يتخذها منصة ليغزو منها العراق. اتخذ بكر منزلًا عاديًا غير مميز ليسكنه في «تل رفعت»، شمال حلب. وقد كان اختياره للمدينة موقفاً. ففي النماينيات من القرن الماضي هاجر عدد من سكانها للعمل في دول الخليج وبالأخص المملكة العربية السعودية. ثم عادوا حاملين معهم أفكارهم وصلاتهم المتطرفة. وبذا أصبحت «تل رفعت» معقلاً حصيناً لـ«داعش» في 2013 في محافظة حلب التي تحوي مئات المقاتلين المتمركزين فيها.

وهناك قام «أمير السلام» - كما يحلو للبعض أن يسموه - برسم بنیان «داعش» - من قمته حتى قواعد المحلحة في المدن، ونظم قوائم تتناول التغلغل في القرى وتحذّر المشرقيين والعالميين. كما وضع تسلسل القيادة في النظام الأمني مستخدماً قلم حبر سائل وأوراقاً من وزارة الدفاع السورية تحمل شعار المعنى بالتأنيث وأماكن الإقامة



حجي بكر

بما يفترض أنه مصادفة بحتة. إن ما كتبه «حجي بكر» على هذه الأوراق، صفحة صفحة، من تفاصيل تشمل مسؤوليات الأفراد لا يقل عن كونه مخطط احتلال. لم يكن منشوراً دينياً بل خطة دقيقة لإنشاء «دولة استخباراتية إسلامية» - «خلافة» تترأسها منظمة شبيهة بوزارة الأمن في ألمانيا الشرقية «ستاسي» سيئة الصيت. لقد تم تطبيق هذه الخطة بدقة مذهلة في الأشهر التي تلت إعدادها. تبدأ الخطة دائماً بالتفاصيل نفسها: تجنّب المجموعة تابعيها عبر افتتاح مكتب دعوة «مركز إسلامي تبشيري». ويتم اختيار شخص أو شخصين ممن يحضرون الدروس والندوات الدينية ويوكلون بمهمة التجنيس على قُرَاهم للحصول على معلومات عدّة. وبإي هذا الخصوص كتب «حجي بكر» قوائم كما يلي:

- حدد العائلات ذات النفوذ.
- تعرّف إلى مصادر دخلهم.
- تعرّف إلى أسماء كتّاب «النوار» في القرية وأحبابها.
- اعرّف أسماء قادتهم ومن يتحكّم بالكتّاب وتوجهاتهم السياسية.
- تعرّف إلى أنشطتهم غير المشروعة «بحسب قانون الشريعة» للاستفادة منها بالابتزاز إن لزم.
- قد أعطيت الأوامر للجواسيس بالأخذ بالاعتبار تفاصيل كالمسابق الإجرامية لشخص أو ميوله الجنسية الشاذة أو ارتباطه بعلاقة سرية، وذلك لاستخدام هذه المعلومات لابتزازه لاحقاً. وكتب «حجي بكر» في مذكراته: «سنعين أذى العملاء شيوفاً للشريعة. نزرهم لفترة يقدون بعدها». كما أضاف على الحاشية بأن عدداً من «الإخوة» سيتم اختيارهم وتوزيعهم بينات أكثر العائلات نفوذاً لضمان التغلغل في هذا العائلات من دون إدراكها ذلك.

كما تقع على عاتق الجواسيس مسؤولية جمع أكبر قدر من المعلومات عن البلدات المستهدفة. من مثل هوية سكانها ومن المسؤول عن إدارتها، تحديد العائلات المتدينة والمدارس الفقهية التي ينتمون إليها، عدد المساجد في البلدة وهوية أئمتها وعدد زوجاتهم وأطفالهم وما هي أعمارهم. إضافة إلى تفاصيل أخرى تشمل طبيعة خطب الإمام وتوجهاته إن كانت أقرب إلى الصوفية، وإن كان مع النظام أم مع المعارضة، وموقفه من الجهاد. كما سعى «حجي بكر» إلى معرفة إن كان الإمام يتلقى راتباً ومن يدفعه، ومن المسؤول عن تعيين الإمام. وأخيراً معرفة كم من الناس في البلدة يتأيدون بالديمقراطية. كانت وظيفة الجواسيس تتلخص في تقني آثار أصغر الشقاكات وكذلك أعفقاها، ما يمكن استخدامه لزرع الفكرة وقهر السكان المحليين. كان من ضمنهم جواسيس تابعين للتنظيمية المرسومة وقوائم المسؤوليات والتقارير المطلوبة الأولى والمراقبة والتجنيس والقتل والخطف.

وفي مخططاته تلك، عين «حجي بكر» أميراً أو قائداً لكل مجلس إقليمي مهمته أعمال القتل والخطف والقص والاتصالات والتشهير، إضافة إلى تعيينه أميراً آخر ليشرف على باقي الأمرء «في حال عدم قيامهم بمهامهم بشكل واف». ما يجعل نواة هذه «الدولة الإلبيه» تحاكي خلية شيطانية بدقتها وعملاها على نشر الخوف.

كانت الخطة تقضي منذ البداية بعمل أجهزة الاستخبارات بشكل متواز مع بعضها، حتى على المستوى الإقليمي. إذ يترأس قسم الاستخبارات العامة أميراً لأنهم يشرف بدوره على نواحي في الفاطعات المختلفة. ويتلقى هؤلاء النواب الاستخباراتية لكل مقاطعة. كما يتلقى نائب الأمير تقارير أيضاً من أفراد الخلايا التجنسية على المستوى المحلي. فالهدف كان أن يراقب الجميع بعضهم. ويترأس أمير المقاطعة كذلك مردي القضاء الشرعيين لتقضي المعلومات، بينما يتولى الأمير المحلي مهمة الإشراف على قسم منفصل «لضباط الأمن».

الشريعة والمحاكم والتقوى المفروضة كلها تخدم هدفاً واحداً المتمثل في المراقبة والسيطرة. حتى أن الكلمة التي استخدمها «حجي بكر» في وصفه أتباعه من المسلمين الحقيقيين هي «الكنوين»، وهي كلمة ليست دينية، إنما مصطلح تقني يستعمل في علم الجيولوجيا أو البناء. ومع ذلك، وجدت هذه الكلمة طريقها منذ 1200 سنة خلت إلى الشهرة، إذ استعملها علماء الكيمياء الشيعية كمصطلح يصف خلق حياة اصطناعية. وفي «كتاب الأجرار» الذي كتبه العالم الإيراني جابر بن حيان نجد رموزاً وكتابات سرية عن خليق إنسان قزم. جاء فيه «الغاية هي خداع الجميع عدا أولئك الذين يحبون الله». قد يروق هذا لاستراتيجي «داعش» على رغم نذهم الشيعية ككفرة لا يؤمنون بالإسلام الحقيقي، إلا أنه بالنسبة إلى «حجي بكر» فإن الله والدين البالغ من العمر 1400 سنة لم يتجاوزا كونهما أدوات يستخدمها على هواه لبلوغ غايته الأسمى.